

صورة فرنسا في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية

The image of France in the Algerian novel in the French language

زهرة مزوني

المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة- الجزائر

abdegam1@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/07/05

تاريخ القبول: 2021/07/06

تاريخ الإرسال: 2021/05/06

الملخص:

يسعى هذا البحث إلى دراسة تجليات صورة فرنسا في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ، وتحديدًا الروايات التي كتبت خلال فترة الخمسينيات ، روايات مولود فرعون ومالك حداد وآسيا جبار، التي نحاول من خلالها الكشف عن الصورة التي رسمها الروائي الجزائري لفرنسا، فهل الصورة التي قدمها مولود فرعون و آسيا جبار قريبة من الصورة التي قدمها مالك حداد؟ وما مدى تأثير ثورة التحرير الوطني على الروائي الجزائري؟

الكلمات المفتاحية:

صورة، فرنسا ، رواية ، جزائرية ، لغة فرنسية.

Abstract:

This research seeks to study the manifestations of the image of France in the Algerian novel written in the French language, specifically the novels that were written during the fifties, the novels of Mouloud Feraoun, Malek Haddad and Assia Djebar, through which we try to reveal the image that the Algerian novelist drew to France, and whether the image presented by Mouloud Feraoun Or Assia Djebar close to the image provided by Malek Haddad? What is the impact of the editorial revolution on the Algerian novelist?

Keywords:

image ;France ;novel ;Algerian ;French language.

مقدمة:

شكلت تيمة الهجرة إلى فرنسا موضوعا أساسيا في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية ويتجلى ذلك في روايات مولود فرعون¹، مثل رواية "ابن الفقير" le fils du pauvre² ورواية "الأرض والدم" terre et le sang la³ التي صدرت سنة 1954، والتي تدور أحداثها في العشرينيات، أي من السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى حتى الثلاثينيات وهي الفترة التي تفاقمت فيها هجرة الجزائريين إلى فرنسا، ثم رواية "الدروب الوعرة أو الصاعدة" les chemins qui montent⁴، كما يتجلى موضوع الهجرة في روايات "آسيا جبار"⁵ خاصة "رواية "القلقون" les impatients⁶ التي صدرت سنة 1958، إلى جانب روايات "مالك حداد"⁷ التي امتزجت بالثورة التحريرية، والتي عكست موقف المتقف الجزائري من الاستعمار الفرنسي، مثل رواية "سأهبك غزالة" je t'offrirai une gazelle⁸، ورواية "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" le quai aux fleurs ne répond plus⁹. وسنحاول في هذه الدراسة أن نرصد الصورة التي رسمها الروائيون الجزائريون لفرنسا، خاصة الجيل المؤسس للرواية الجزائرية باللغة الفرنسية، حتى نميز بين الصورة التي تجلّت في رواياتهم. وهكذا يمكننا أن نتساءل هل الحرب أو الثورة التحريرية أثّرت على نظرة المتقف الجزائري لفرنسا؟ وهل الصورة التي قدّمها مولود فرعون أو قدّمها آسيا جبار قريبة من الصورة التي قدّمها مالك حداد، خاصة وأنّ كل هؤلاء خريج المدرسة الفرنسية؟.

صورة فرنسا في روايات مولود فرعون (رواية ابن الفقير ورواية الدروب الصاعدة):

ركزت كل روايات "مولود فرعون" على موضوع الفقر والهجرة، والهجرة إلى فرنسا كما يوضح "مولود فرعون" مرتبطة بالفقر، إذ يعتبر هذا الأخير العامل الأساسي والأول الذي أدّى إلى هجرة كثير من الشباب الجزائري إلى فرنسا بحثا عن الرزق الذي لم يسمح لهم الحصول عليه في الجزائر. نتيجة السياسة الاستعمارية العنصرية، الغاشمة، التي استحوذت على أراضي الجزائريين وصادت أرزاقهم، فلم يبق لهم من سبيل إلا الهجرة، وهذا ما يوضحه "مولود فرعون" في روايته "الدروب الوعرة أو الصاعدة

" **les chemins qui montent** " بقوله : " أما نحن أهل البلاد ، فلم يبق لنا شيء في بلادنا ، وما بقي لنا إذن إلا أن نذهب بدورنا إلى بلادهم ، ولكن لا لنحتل المناصب ، ولا لنجمع الثروات ، بل لكي نحصل على رغيف العيش ، سواء عن طريق العمل الشريف أو التسول أو السرقة ، وهذه الصفة الخاسرة التي يرغموننا عليها ، والحقيقة أن بلادنا ، ليست فقيرة أكثر من البلدان الأخرى ¹⁰ . فالجزائري إذن كان مرغما على الهجرة إلى فرنسا ليحصل على قوته الذي حُرِم منه في بلاده ، ولهذا فكل الطرق مشروعة أمام هذا المهاجر بعد أن سُدت أبواب الرزق في بلاده في وجهه ، رغم أن بلاده ليست فقيرة. والدليل على ذلك أن هؤلاء الأوروبيين قد اغتتوا من خيرات هذه البلاد .

وما زاد من إصرار الشباب الجزائري على الهجرة إلى فرنسا الأحاديث التي كان يتناقلها الناس "عن فلان وفلان ممن ذهب إلى فرنسا فأثرى فيها ثراء كبيرا، وأصبح يتعامل بالملايين ، ويملك في باريس أو مدينة ليل البنائيات والمقاهي والمطاعم والمحلات التجارية وفي مثل هذه الحالة كيف لا نرحل أفواجا نحو الترف والهناء" ¹¹ . وهكذا ارتسمت في أذهان الناس صورة إيجابية لفرنسا ، فأصبحت حلما يراود كل شاب جزائري يريد الخروج من دائرة العوز والفاقة التي وجد نفسه محصورا فيها ، حتى الأولياء فإنهم قاموا بتشجيع أبنائهم على الهجرة إلى فرنسا لتحسين وضعيتهم ووضعيتهم أسرهم ، وهذا ما نستشفه من خلال رواية "ابن الفقير" **le fils du pauvre** ، حيث نصح "رمضان" ابنه "فورولو" بالهجرة ، إذ يقول : " وعلى مدى سنتين أو ثلاث ستصبح أكثر قوة لتذهب للعمل في فرنسا ، وسترى حينها أنك بشهادتك ، ستدير أمورك أفضل منا جميعا ، سترى كل شيء .. وعند عودتك سنزوجك ، تلك هي الحياة التي أقترحها عليك ، إنها الحياة الوحيدة التي تليق بها " ¹² .

وقد رحل "عامر" في رواية "الدروب الوعرة أو الصاعدة" مثل غيره من شباب القرية سعيا وراء الغنى والثراء ، حالما بحياة جديدة ، ولكنه في باريس يصدم بالوضع المغاير لما سمع عن فرنسا /باريس " الجنة الموعودة " وإذا المعاناة والحقد والعنصرية هم بديل السعادة والهناء الذين حلم بهما .

فالمهاجرون الجزائريون غالبا ما يعيشون جماعات جماعات، تمثل كل جماعة القرية أو المنطقة التي نزع منها المهاجر، "فاعمر" كان يقيم في باريس مع أبناء العم والأصدقاء وجميع أبناء "ايغيل نزمان" الكثيرين الموجودين هناك، إذ يشكل هؤلاء مجتمعا مصغرا داخل المجتمع الفرنسي، وهم يعيشون على الهامش بعيدا عن الفرنسيين. وغالبا ما يواجهون بنظرات الاحتقار والعنصرية، لم ينج منها حتى "عامر" رغم أن أمه فرنسية. لقد اكتشف "عامر" من خلال معاشته للفرنسيين أن هؤلاء يحتقرون الجزائريين، فهم بالنسبة لهم أقل درجة، همج، متخلفون، وإذا كان الناس في هذه المدينة "أشكالا وأنواعا، فمنهم الأغنياء والفقراء، ومنهم اللصوص والمتسكعون -أما نحن فلا ننتمي إلى أي واحدة من هذه الفئات، إننا لا نستحي من واقع حالنا ما دمنا بالفعل معذبين في الأرض"¹³.

لقد تبخرت أحلام "عامر" خاصة مع عبارات العنصرية التي كان يسمعها من أهل هذه المدينة "عُد إلى بلادك يا"بيكو"¹⁴. فيحببهم هو في نفسه قائلا " ولتعلموا أيضا أيها السادة أن المعذبين في الأرض بشر، فلا تعتبروا وجودهم بينكم كالوباء الذي يجتاح مدينتكم العامرة"¹⁵. وإذا كانت فرنسا /باريس حسب مولود فرعون مكانا للمعاناة والحد والعنصرية، فهي من جهة أخرى مركز الحضارة والحرية، فباريس هي موطن الحرية والتحرر، حيث يمارس المهاجر حريته بعيدا عن كل القيود والرقابة، وهكذا صار "عامر" وأصدقائه يتعاطون جميع الموبقات " من إفطار في رمضان، وشرب للخمر، وأكل للحم الخنزير، لقد تحررنا من جميع القيود ما عدا حقد الفرنسيين علينا"¹⁶. ومن جهة أخرى تعتبر فرنسا مركزا للوعي " كان يجب الذهاب إلى فرنسا لكي نفهم"¹⁷. وقد فهم "عامر" أن له وطن وخارج هذا الوطن لن يكون إلا أجنبيا. " لقد أدركت أن لي وطنا، وخارج هذا الوطن لن أكون إلا غريبا. لقد استغرقت مني هذه الحقيقة عشرين سنة للتوصل إليها"¹⁸. فالتمسك بالوطن هو الحقيقة الوحيدة، وليس هناك من حقيقة إلا الوطن الذي نولد فيه، وطن الأجداد والطفولة.

فالفرد يجب أن يعتز بوطنه وأصوله، ولهذا يصرح "عامر" بعد عودته من الغربة "أنا ابن ايغيل نزمان، لا بد أن نتمسك بالوطن، ونعتز بأصوله. ولا نتكر له، مكانتي هنا تحصلت عليها بعد مشقة وسأدافع للحفاظ عليها"¹⁹.

وهو ينفي نفيا قاطعا أن يكون المعمر الفرنسي منتميا للجزائر، فالجزائر هي وطنه هو وليست وطن هؤلاء المستوطنين الذين التقى بهم على ظهر السفينة خلال عودته، فهم "يتصوّرون أنهم عائدون إلى بلادهم ورأيتهم يتباهون في غرفهم الفاخرة وفي قاعات الاستقبال وفوق السطح المحجوز لركاب الدرجة الأولى، فسخرت منهم حينما لاحت مدينة الجزائر البيضاء كأنها جبل من الرخام، غمرتني فرحة كبرى واقشعرّ بدني من التأثير وقلت في نفسي "ما أجمل بلادي"²⁰.

هكذا كانت الهجرة إلى فرنسا عاملا مساعدا على نمو وعي المهاجر الجزائري، مما أدى إلى تمسكه بوطنه والافتخار بأصوله، وقد أدرك هذا الأخير أن الجنة والسعادة والأفراح جميعها موجودة في بلاده، وكذلك الجحيم والحياة البائسة، فإما أن نصادف هذه أو تلك. ونلاحظ أن الروائي لم يهتم بوصف جمال باريس بقدر ما اهتم برصد معاناة المهاجرين الجزائريين بفرنسا، وهو يقدم صورة مناقضة للصورة التي ارتسمت في أذهان الناس عن فرنسا بلد الحريات والإخاء والمساواة، فرنسا "الجنة الموعودة" هي مجرد أكاذيب، إن فرنسا في حقيقة الأمر جنة أهلها أما بالنسبة للمهاجرين المقيمين بها فهي الجحيم بعينه.

صورة فرنسا في رواية "القلقون" لأسيا جبار:

ترتبط فرنسا/باريس في رواية "القلقون" **les impatients** لأسيا جبار بالحرية والتحرر. ففرنسا /باريس موطن الحرية والانطلاق حيث تسمح للإنسان أن يتحرر من كل الأعراف والتقاليد التي كانت تكبله في بلاده، وهذا حال بطلة الرواية "دليلة" التي رحلت إلى فرنسا للالتحاق بخطيبها "سالم" وهناك أصبحت تتصرف بكل حرية على عكس ما كان عليه الأمر في الجزائر ويتجلى ذلك من خلال قولها " حاولت أن أنسى كل شيء سوى اعتزازي لرؤية باريس وهي تلقي على السأم ، والشيخوخة المتهاكة ، وتكشف لي أخيرا عن وجهها الحقيقي، وجهها الحاني على كل من يشعر بالحرية والانطلاق"²¹.

والطابع المادي يطغى على فرنسا/باريس، يظهر ذلك من خلال نساء باريس " النساء الأنثىات المخضبات الوجوه ذات الأقنعة القاسية، وعدم حياء الأزواج، وعجرفة النساء المتسكعات على الرصيف عند خروج الناس من الملاهي بانتظار الفريسة كأنهن آلات غامضات لمذهب غامض"²².

كما يظهر من خلال تهافت سكان باريس على الملذات واللهو فهم " يتدافعون إلى دور السينما، ويصطفون الواحد تلو الآخر أمام دور اللهو (...) إن عندهم الكثير من النشاط ولكن قليلا من العواطف، ولا يكادون يحسون بالانفعالات"²³. وهذا الواقع له تأثير على الإنسان، خاصة أولئك المغتربين، المنبهرين بفرنسا، المتعطشين للحرية، لذلك ينساقون وراء أحلامهم وغرائزهم فيذوبون في هذا المجتمع المادي ويفقدون من ثم هويتهم. ففرنسا كما تجلت في رواية "القلقون" لآسيا جبار هي فضاء مهدد لخصوصية الإنسان إذ تدفع به إلى التخلي عن مبادئه وأصوله وقيمه.

صورة فرنسا في روايتي " ساهبك غزالة" و " رصيف الأزهار لم يعد يجيب" لمالك حداد:

أصبحت فرنسا كما لاحظنا في الروايات السابقة الوجهة الأولى للعمال والمهاجرين الجزائريين، وتتعدد أسباب الهجرة إلى فرنسا بين الأسباب الاقتصادية كما رأينا في رواية مولود فرعون، إلى جانب الأسباب التعليمية والعسكرية والسياسية والنفسية. وإذا كانت الأسباب الاقتصادية تؤدي إلى هجرات طوعية، فإن الدوافع العسكرية تؤدي إلى هجرات اضطرارية أو إجبارية، وهذا ما عرفته الجزائر خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث قامت فرنسا تحت ضغط الحرب بنقل عدد كبير من الجزائريين إلى فرنسا بين جنود وعمال في المصانع.

أما بالنسبة لأبطال " مالك حداد" خالد بن طوبال "في رواية" رصيف الأزهار لم يعد يجيب"، و" المؤلف" في رواية "ساهبك غزالة"، فقد ارتبطت الهجرة إلى فرنسا بالأسباب السياسية والنفسية، إذ هاجر "خالد بن طوبال" فرارا من الاعتقال، حيث اختار المنفى مكرها بعد أن تمت ملاحقته من قبل الجيش الاستعماري نتيجة كتاباته، وهكذا كانت "باريس" المكان

الآمن الذي تمكّن فيه من ممارسة الكتابة بحرية بعيدا عن كل مراقبة، أما " المؤلف" بطل رواية " ساهبك غزالة" فهو مثل بطل رواية " رصيف الأزهار لم يعد يجيب " هاجر بحثا عن فضاء أرحب يمكنه أن ينشر فيه أعماله.

لقد وصف "مالك حداد" الأماكن حيث عبّر عن إقامته القلقة بفرنسا أثناء الحرب، وعن حالة الضياع والاغتراب التي يعاني منها الأجنبي أو المنفي خاصة وأن البلد الذي اتّخذة مقرا لإقامته هو نفسه البلد الذي يحتل بلده ووطنه. ولهذا فهو يحاول تعويض "الوطن" الذي رحل عنه مجبرا بالكتابة عن طريق استحضار الأمكنة من خلال الذاكرة والمكان" يرفض أن يبقى مغلقا بشكل دائم، إنه يتوزّع ويبدو وكأنّه يتجه إلى مختلف الأماكن دون صعوبة وهو يتحرّك نحو أزمنة أخرى، وعلى مختلف مستويات الحلم والذاكرة²⁴.

تحضر فرنسا وخاصة باريس في رواية "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" مادية، قائمة، تبعث على الكآبة والحزن، وفي وصفه لهذه المدينة يكشف الروائي عن رؤية ذاتية لها بوصفها فضاء لما هو متخيّل. فباريس مجرد منفى اضطراري فرّ إليه البطل "خالد بن طوبال" من أهوال الحرب وهو يأمل بالعودة إلى بلاده حالما تتحسن الظروف، ولذلك لم يحاول الذوبان في هذا المجتمع الباريسي أو الفرنسي ونسيان وطنه. وبرغم الإغراءات التي تقدمها باريس إلا أنّ "خالد بن طوبال" بقي وفيًا لجزائريته وعروبته.

كل ما في باريس بالنسبة لخالد بن طوبال سيئ حتّى نورها فهو مزعج أفقده شهية النوم " ولكن النور الذي لم تكن الستائر تمنعه من الولوج إليه كان يجعل نومه متقطعاً.، وقد كان نورا باريسيا، أغبر اللون مشبعا بالقير، يكاد يكون صلبا، نورا أصابه البرد، فكان هو نفسه باهتا كعيني المريض"²⁵.

تزخر باريس بالمباني والمعالم التاريخية والمتاحف، والمسارح، والفنادق، مثل نهر السين الذي تقع على ضفتيه مدينة باريس، وكنيسة نوتردام والحي اللاتيني الذي لا يغمض له جفن أبدا، والأولدنافي وزبائنه الملتحون وشارع تورنون ومجلس الشيوخ الهادي كثير الأسرار. ولكن هذه المعالم والمباني الجميلة لم تزد البطل إلا تعلّقا بوطنه، فهي تذكره دوما بالاحتلال والتشويه الذي لحق المدن الجزائرية، ولهذا تظل صورة معاناة الجزائريين تلاحقه

كظله فتفقدته الشهية وهي تردّد على مسامعه أن " فلانا اختفى وفلانا عذب وفلانا في السجن "26.

ولا تختلف صورة باريس /فرنسا في رواية "سأهيك غزالة" عن الصورة التي وردت في رواية "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" إذ تظهر باريس مظلمة، جوها كدر " البيئة ذات كدرة وادلهمام"27. "إن باريس تموت كثيرا عندما تمطر"28.

نلاحظ أن الوصف الذي اعتمده "مالك حداد للأمكنة" غير بريء، وبالتالي غير محايد، لأنه يحكي، وليس بالضرورة يحاكي، تنتقل عدسة العين (الكاميرا) وفق استراتيجية تصويرية مقصودة، بمعنى أن الوصف رؤية ونظرة وموقف حتى ولو خلا من أبسط التقنيات الوصفية"29.

والوصف "رصد لقيم روحية ومادية، ولا يطال فقط "الفضاء الجغرافي" (الفضاء الخارجي أو المنظور الخارجي) وإنما يسعى كذلك إلى عكس الفضاء السيكلولوجي (الفضاء الداخلي أو المنظور الذهني) وتربط الفضاءين علاقة تفسيرية"30.

وهذا ما ألح عليه "دانييل هنري باجو"31 في دراسته انه "ينبغي التنبيه إلى كل ما يجعل من الفضاء الخارجي شيئا متناظرا شكليا isomorphe مع الفضاء الداخلي (لشخصية ما، أو لأننا السارد) ما دام الفضاء (الأجنبي) بمكنته أن يدلّ على المشهد الذهني ويعيد إنتاجه"32.

ويمكن القول أن الوصف الذي اعتمده "مالك حداد" لباريس /فرنسا هو انعكاس لذاتية الكاتب وتأکید على رفض هذا الأخير للآخر المستعمر وتشبّثه بهويته وانتمائه الحضاري، ولهذا نلاحظ أن الكاتب يقابل "فضاء باريس/فرنسا" أي فضاء الآخر بفضاء الجزائر فضاء الأننا أو الذات "إن استراتيجية ترجمة المرئي الداخلي (الهُنا) تتوأم باستراتيجية ترجمة المرئي الخارجي (الهُناك) لتصعيد درامية المفارقة، وتأجيج درامية المقارنة وهذا ما يفصح عنه السجل الوصفي المركب: الأننا /الآخر، الهنا/الهناك"33.

فالكاتب الذي يعيش في فضاء الآخر مثل الرحالة الذي يعيش على المقارنة بين عالم مجهول جديد مختلف وعالم معروف، أي "المقارنة بين الهوية والاختلاف"³⁴. فالمقارنة إذن هي "التي تضمن اتصال الرحالة بفضاء المغيرة، وفي الآن نفسه تضمن انفصاله حفاظا على كينونته الخاصة"³⁵.

وهذا ما نلاحظه في رواية "سأهبك غزالة" إذ إن المؤلف يعيش في باريس ولكنه منفصل عن هذا العالم الذي يحيط به، فهو يحسّ بالاغتراب والوحدة واللا انسجام فيه، ولذلك يتخذ الذاكرة وسيلة للهروب من هذا العالم، ليقدّم العالم النقيض للعالم الذي يعيش فيه، فهنا نلاحظ ثنائية الاتصال/الانفصال، هنا/هناك، الغرب/الشرق... ويتعزّز هذا الطرح من خلال التجاء المؤلف إلى فضاء الصحراء الذي جعله دالا على الجزائر ليقابله بفضاء باريس. فباريس كما تظهر في الرواية، خالية، مظلمة، قاسية، وهذا ليؤكد استحالة اندماج المغترب (الشرقي) في هذا الفضاء المادي (الغرب).

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن "باريس" شكلت أهم مدينة فرنسية قامت العديد من الروايات الجزائرية باستحضارها، فباريس هي المدينة التي رحل إليها "عامر" بطل رواية "الدروب الوعرة أو الصاعدة" كما أنها المدينة التي رحلت إليها "دليلة" بطلة رواية "القلقون"، وهي المدينة التي استقر بها بطل رواية مالك حداد "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" "خالد بن طوبال" وكذلك "المؤلف" بطل رواية "سأهبك غزالة".

وتعتبر هذه المدينة عاصمة الدولة الفرنسية وهي أهم مركز كان يقصده المهاجرون والعمال لإيجاد عمل في إحدى الورشات والمصانع، وكذلك للدراسة حيث توجد أعرق جامعاتها "جامعة السوربون".

وتختلف النظرة إلى باريس بين رواية وأخرى، وذلك حسب زاوية النظر التي يتخذها كل روائي.

يغلب على وصف "باريس" في رواية "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" لمالك حداد الصورة القاتمة، السوداوية، وذلك يعود إلى نفسية الكاتب، المتأثرة شديدة التأثير بوقع الحرب في الجزائر، ولهذا انعكست حالته النفسية على رؤيته للمدينة، وهو يعقد مقارنة بين صورة "باريس" التي أغوت كثيرا من العرب، وبين صورة بلاده "الجزائر" خاصة "قسنطينة"، فلا

يرى في "باريس/فرنسا" إلا وجهها الاستعماري القاتم، ففرنسا هي الاستعمار، ولذلك لم يستطع "خالد بن طوبال" التأقلم مع حياة "باريس/فرنسا" حيث شعر بالتيه في شوارعها، وهروبا من هذا الجو الخانق، اتكأ على ذاكرته يستدعي من خلالها مدينته "قسنطينة" أسواقها، أهلها، ليشعر ببعض الدفء، وهكذا غدت فرنسا بالنسبة "لخالد بن طوبال" "الجحيم" أما "الجزائر" فهي "الجنة" التي يحن إليها ويتمنى العودة إليها.

ركّز "مالك حداد" في هذه الرواية على وصف حالة ونفسية بطله "خالد بن طوبال" ولهذا لم يهتم بوصف حالة المهاجرين الجزائريين ومعاناتهم بهذه المدينة مثلما فعل "مولود فرعون" في روايته "الدروب الوعرة أو الصاعدة". إلى جانب ذلك نلاحظ عدم اهتمام الروائي بالطابع الجمالي لهذه المدينة وهو يقترب هنا من مولود فرعون، إذ إن الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية "لا ينبهرون عند سفرهم إلى فرنسا، بنفس الدرجة التي تحدث لمن يكتب عامة باللغة العربية، لأنهم يحسون أنهم توجهوا إلى بلد يعرفون لغته وثقافته، موجود داخلهم، وكثيرا ما تدفع الهجرة أو فنقل المنفى الاختياري لكاتب إلى أن يرتبط أكثر بجذوره القادم منها، وألا ينفصل عنها"³⁶.

وهذا ما يتجلى بصورة واضحة في رواية "مولود فرعون" "الدروب الصاعدة" حيث جعلت الهجرة "عامر" أشد تمسكا بوطنه، وهو ما نلاحظه كذلك على بطل رواية "رصيف الأزهار" لم يعد يجيب "خالد بن طوبال" الذي ظلت مأساة الهوية تطارده في فضاء الآخر، ورغم إغراءات "باريس" و"مونيك" زوجة صديق "خالد بن طوبال"، إلا أن هذا الأخير ظل محافظا على هويته، معترزا بشخصيته، حالما بالعودة إلى مدينته.

ولا تختلف رواية "سأهيك غزالة" عن رواية "رصيف الأزهار" لم يعد يجيب "باريس" تظهر "باريس" مظلمة على الدوام، خاصة وأن زمن الرواية هو فصل الشتاء، فطقس "باريس" انعكس على كل شيء فيها، ولذلك اتسم الجو كله بالسوداوية، فاللون الأسود هو السمة الغالبة لهذه المدينة إلى درجة تشعر الإنسان بالوحدة والعزلة.

رغم جمال "باريس" إلا أنها انعكست سلبا على أبطال روايات "مالك حداد" وذلك لأن هؤلاء الأبطال واعون بظروف أمّتهم، يتميزون بحبهم الشديد لوطنهم، وبتفكيرهم الدائم فيه، وهم مشغولون بالحرب الدائرة في بلادهم، ولذلك لا يمكن لهؤلاء أن يندمجوا في فضاء "باريس"، لأنهم دائمو التفكير في العودة إلى الوطن دلالة على عدم إحساسهم بالانتماء إلى فضاء الآخر.

وعموما يمكننا اعتبار روايات "مالك حداد" روايات الاغتراب الذاتي والمكاني، فهي تصوّر القلق الذي يعانيه الإنسان الجزائري المهاجر إلى بلاد الغربة أو المهجر. ويتجسّد هذا القلق بكل جلاء في عدم التفاهم بين الأنا والآخر، على مستوى الأفكار، والعادات، والقيم، والتقاليد، ويتمظهر من خلال الانفصام الذي تعيشه الذات المغتربة عن الواقع، وحلم العودة الذي يراود هذه الذات وارتباطها بعالمها "الهناك" من خلال استعادة ذكرى الحبيبة والوطن من خلال الذاكرة مثل ما لاحظناه في رواية "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" إذ يهرب البطل من الواقع باستعادة صورة زوجته "وريدة" التي تركها في الجزائر واستعادة مدينته "قسنطينة" فالبطل يعيش بجسده في باريس أما روحه فهي متعلّقة بأحبته ووطنه، ولهذا يظهر أبطال "مالك حداد" منكمشون على ذاتهم، محافظون على هويتهم، رافضون للانسلاخ عن شخصيتهم، ورغم أنّ الشخصية المهاجرة محكومة بالتعامل بمنطقتين يمثلان الواقع وهما:

- الانتماء الأصلي للوطن الأم.
 - والانتفاء الجديد إلى المهجر.
- إلا أنّ أبطال "مالك حداد" يقتصرون على انتماء واحد، وهو الانتماء الأصلي للوطن الأم. إذ إنهم ينغلقون على ذاتهم، فلا يحاولون التوفيق بين الفضاءين، ولهذا يعانون من القلق والاغتراب.

من خلال دراستنا لصورة فرنسا في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية نكتشف أن هناك رؤيتين متقابلتين لفرنسا/ باريس:

1-الرؤية الأولى تبرز فيها فرنسا /باريس بوصفها منفى، يشعر فيها الإنسان بالاغتراب والضياع والقلق، لذلك فهو دائم الحنين إلى وطنه ، متعلق بأهله وأحبته، لا يحلم إلا بالعودة إلى أرضه، وقد تجلّت هذه الرؤية بشكل بارز في روايات مالك حداد.

2-الرؤية الثانية عكس الرؤية الأولى، تبرز فيها فرنسا/باريس بوصفها الجنة الموعودة ، فهي محط آمال وأحلام المهاجر، وهذه هي الرؤية التي يحملها كثير من العرب ، وهذه الصورة التي مازالت تتردّد إلى يومنا هذا،والتي حملتها ورسختها العديد من الروايات العربية ، منها رواية " الحي اللاتيني"لسهيل إدريس ، ورواية أديب لطه حسين، وقد تجلّت هذه الرؤية بشكل بارز في رواية " القلقون "لآسيا جبار.

وتعكس الرؤيتان رغم اختلافهما نمط التواصل مع الآخر، فالأنا قامت بالاتصال مع الآخر على أرضه(فرنسا) ولكن شكل هذا التواصل اختلف من رواية إلى أخرى، ومن بطل إلى آخر، وقد تجلّى هذا التواصل في شكلين أساسيين:

1- شكل يتعلق بالارتقاء في أحضان الآخر بإيجابياته وسلبياته، وهذا الشكل يمثل تهديدا للهوية "الأنا" كما يبرز نمط علاقات غير متكافئة ، حيث الأنا تتخلى عن كثير من قيمها للاندماج في مجتمع الآخر، وينعكس سلبا على الأنا لأنها تفقد خصوصيتها . وهذا ما أكدته رواية "القلقون" لآسيا جبار.وقد عالج العديد من الروائيين هذا النوع من العلاقة مع الآخر، وأبرز رواية جزائرية تجلّت فيها هذه الإشكالية رواية "مأمون مشروع مثل أعلى Mamoun l'ébauche d'unIdéal" لشكري خوجة³⁷، حيث يرتمي البطل "مأمون" في أحضان الآخر(فرنسا)،ينسى أهله وقريته، ويعيش على النمط الأوروبي ، يعب من الملمات غير أبه بقيمه ودينه وعاداته، وفي الأخير وبعد مرض عضال يعود إلى قريته ليموت هناك.

2- أما الشكل الثاني فيتعلق التواصل فيه مع الآخر على أساس إنساني، فالآخر ليس أعلى ولا أدنى من الأنا، بل الآخر يماثل الأنا، فهناك اتصال مبني على الحوار، والأنا لا تتساق وراء رغبات الآخر ولا تحاول الاندماج في مجتمع الآخر، بل تسعى للمحافظة على هويتها وخصوصيتها ويمثل هذا الشكل روايات مالك حداد.

الخاتمة:

من خلال دراستنا للروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية نستنتج مجموعة من الملاحظات

- أن نظرة الروائيين الجزائريين باللسان الفرنسي مقاربة خاصة من خلال عدم الانبهار بالحضارة الغربية، شدة التعلق بالوطن، والتفكير الدائم في العودة، ولكنها مختلفة من خلال كيفية رسم صورة باريس/فرنسا، إذ رسم "مولود فرعون" هذه المدينة من خلال التركيز على نموذج المهاجر ومعاناته واخفاقاته، أما مالك حداد فقد رسم صورة هذه المدينة من خلال رؤيته الذاتية، فخالد بن طوبال في رواية "رصيف الأزهار لم يعد يجيب" هو "مالك حداد" نفسه وبالتالي تكشف هذه الرواية عن رؤية مالك حداد لهذه المدينة.

- لم يكن الاتصال بفرنسا عاملا سلبيا بل كان عاملا إيجابيا وهذا ما رصدته لنا العديد من الروايات، منها رواية "الدروب الوعرة أو الصاعدة" لمولود فرعون، إذ إن الاتصال بفرنسا ساعد على الوعي، ولهذا كان لابد للجزائري أن يهاجر إلى الغرب "فرنسا" ليفهم أوضاعه وحقيقته، وكثير من الجزائريين الذين ذهبوا إلى فرنسا بسبب العمل أو بسبب مشاركتهم في الحرب العالمية الأولى أو الثانية أخذوا يقارنون بين أوضاعهم في فرنسا وأوضاعهم في الجزائر. وقد أتاح لهم ذلك فرصة للتعرف على حقيقة مهمة وهي أن الفرنسيين الأصليين يحترمون الشعور الإنساني ويتعاملون مع غيرهم بطريقة واقعية لا تشابه في شيء تلك النظرة العابسة التي تعودوا مشاهدتها على ملامح أوروبي في الجزائر. وكان الجزائريون العائدين من فرنسا بعد الحرب يتكلمون على المعاملة الطيبة التي تلقوها في فرنسا " في فرنسا نحظى برضى الأوروبيين، وبمعاملتهم الطيبة، وهم يعلموننا المهن النافعة، ويدفعون لنا الأجور"³⁸.

وشعر بعض الشباب الجزائري بقبول المجتمع الفرنسي لهم من خلال منحهم بعض الحقوق التي لم يحصلوا عليها في بلادهم، وهذا ما "أثار إعجاب عدد كبير من المهاجرين هو أنّ الفرنسي حريص على مصالحه وله رغبة شديدة في رفع إنتاجه لكنه لا يتصرف بغطرسة وجبروت كالأوروبي المقيم في الجزائر"³⁹. وأدّى ذلك لرسم صورة إيجابية لفرنسي فرنسا.

- رغم عقدة الانبهار بالآخر التي وسمت بطلّة رواية "القلقون" لآسيا جبار، إلا أن هذه العقدة انتفتت نهائياً عن أبطال روايات "مولود فرعون" و"مالك حداد"، فالبطل في رواية "الدروب الوعرة" الذي هاجر إلى فرنسا بحثاً عن حياة أفضل، اكتشف الكذبة التي يروجها الناس عن الجنة الموعودة، فقرر العودة إلى وطنه، وكذلك أبطال روايات "مالك حداد" الذين واصلوا نضالهم ضد المستعمر الفرنسي، ففرنسا لم تكن إلا منفى اضطراري، لم تستطع متاحفها، وحدثاتها، ومبانيها الجميلة أن تتسيهم عذاب اخوانهم في الجزائر، فكل شيء فيها كان يذكرهم بأنها المستعمر الذي مازال يقيد بلادهم.

- كان للثورة التحريرية تأثيراً كبيراً على الروائيين الجزائريين ومنهم "مالك حداد" الذي جعل رواياته وسيلة للتنديد بالاستعمار، وأداة لفصح جرائمه ومجازره في الجزائر. وقد أدرج "جان ديجو" Jean Déjeux رواياته ضمن "أدب المقاومة". ونلاحظ أن كل أعماله ارتبطت بالثورة التحريرية.

الهوامش:

- 1-مولود فرعون ولد يوم 8مارس 1913 بتيزي هيل بتيزي وزو،التحق سنة 1932 بمدرسة المعلمين ببوزريعة ،عين سنة 1935 معلما بتيزي هيل ، وفي سنة 1952 عين مديرا بمسقط رأسه،استشهد يوم 15مارس 1962.
- 2-رواية ابن الفقير:بدأ مولود فرعون كتابة هذه الرواية سنة 1939 ولكنها لم تنشر إلا سنة 1950 على حسابه الخاص ثم في سنة 1954 نشرت الرواية من قبل دار النشر لوسوي بفرنسا،يصنف الدارسون هذه الرواية ضمن الرواية الاثنوغرافية ، والأدب الاثنوغرافي هو الأدب الذي يهتم بالعرق والجنس، يقوم على رصد ثقافة الشعوب من مسكن ولباس ومملات وأعراس.ينظر سليم بنقّة، الأدب الاثنوغرافي في الجزائر المستعمرة، موقع أنتروبوس www.arathropos.com
- 3-نالت رواية الأرض والدم جائزة الرواية الشعبية سنة 1953.
- 4-رواية الدروب الوعرة أو الصاعدة، نشرت سنة 1957وهي تعالج قضايا اجتماعية وسياسية منها المنفى والحريات والمرأة.
- 5-آسيا جبار:روائية وكاتبة قصة قصيرة وصحفية وشاعرة ومخرجة أفلام وأستاذة جامعية، اسمها الحقيقي فاطمة الزهراء إيماالاين ،ولدت يوم 3يونيو 1936 بمدينة شرشال، زاولت دراستها بالجزائر (البلدية والجزائر العاصمة)ثم انتقلت إلى فرنسا لاتمام دراستها، فكانت أول امرأة جزائرية تلتحق بالمدرسة العليا للأساتذة سنة 1956.توقفت عن الدراسة بسبب مشاركتها في اضراب الطلبة الجزائريين، اشتغلت سنة 1959 كأستاذة بجامعة الرباط ثم بعد الاستقلال بجامعة الجزائر،وفي السبعينيات هاجرت إلى فرنسا ،حيث استقرت، انتخبت سنة 2005 كأول امرأة مغاربية وعربية لعضوية أكاديمية اللغة الفرنسية.
- 6-رواية القلقون، ترجمت إلى "المتلفون"حسب بعض الترجمات، صدرت عن دار نشر جولييار سنة 1958.
- 7-مالك حداد (1927-1978)ولد بقسنطينة سنة 1927،تحصل على شهادة البكالوريا شعبة فلسفة الأدب سنة 1948، اشتغل معلما،ثم التحق بأكس بروفنس بفرنسا لدراسة الحقوق،بعد اندلاع الثورة التحريرية تخلى عن الدراسة،وانظم إلى جبهة التحرير الوطني ،حيث قام بمهام رسمية.له العديد من المؤلفات أغلبها ترجم إلى اللغة العربية.

8-رواية ساهبك غزالة :صدرت سنة 1959 عن دار جوليار بفرنسا،وقد ترجمت إلى اللغة العربية من طرف صالح قرمادي سنة 1966، كما ترجمها محمد ساري تحت عنوان "سأهديك غزالة"سنة 2010.

9-رواية رصيف الأزهار لم يعد يجيب ،صدرت سنة 1961عن دار نشر جوليار بفرنسا،وأعيد طبعها عدة مرات،سنة 1978، و1982 عن دار نشر جوليار، وسنة 2004و2008 عن دار نشر " Média plus"بالجزائر.ترجمت الرواية إلى اللغة العربية سنة 1965من قبل حنفي بن عيسى تحت عنوان "رصيف الأزهار لا يجيب" وفي سنة 1999قام الباحث السوري "ذوقان قرقوط"بترجمتها تحت عنوان " ليس في رصيف الأزهار من يجيب"وهذه هي النسخة المتوفرة اليوم على الأنترنت.

10-Mouloud Feraoun , les chemins qui montent,éditions Talantikit, Béjaia,2014,p214.

11-Ibid,p183.

12-Mouloud Feraoun,le fils du pauvre, éditions Talantikit,Béjaia,Algérie,2015,p158

13-Mouloud Feraoun, les chemins qui montent,p125.

14-Ibid,p126.

15-Ibid ,p126.

16-Ibid,p126.

17-Ibid,p126.

18-Ibid,p127.

19-Ibid,p121.

20-Ibid,p121.

21-Assia Djebbar,les impatients,édition julliard, Paris,1958,p219.

22-Ibid,p201.

23-Ibid,p198.

24-غاستون باشلار،جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت،لبنان، ط3، 1987، ص72.

25-مالك حداد،ليس في رصيف الأزهار من يجيب،ترجمة ذوقان قرقوط، الهيئة العامة لقصور الثقافة،القاهرة، 1999، ص 58.

26-المصدر نفسه،ص58.

27-مالك حداد،سأهيك غزالة ، ترجمة صالح قرمادي، الدار التونسية للنشر،1968، ص23.

28- مالك حداد،سأهيك غزالة،ص20.

29-عبد النبي ذاكر، الصورة،الأنا، الآخر، منشورات الزمن،الرباط، المغرب،سلسلة شرفات، العدد43، 2014، (دط)، ص127.

30- المرجع نفسه،ص128.

31-دانييل هنري باجو: D.H.Pageaux، من مواليد 1939،بباريس،أستاذ الأدب المقارن،وهو متخصص في الآداب الفرنكفونية،له أبحاث صورتية مشهود بقيمتها العلمية، استطاعت أن تتبوأ مكانة هامة ضمن المراجع التي لا يستغنى عنها، من أبرز أعماله:أفق دارسي للأدب المقارن،الصورة الثقافية،سنتريس 8،1981، و صورة البرتغال في الآداب الفرنسية(1700-1755)سنة 1971.

32-عبد النبي ذاكر، الصورة،الأنا،الآخر، ص128.

33-المرجع نفسه،ص126.

34- المرجع نفسه،ص 124.

35- المرجع نفسه،ص 125.

36- محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1996، ص14.

37- شكري خوجة:حسان خوجة حمدان ولد سنة 1891وتوفي سنة1967، هو من الروائيين الأوائل في فترة ما بين الحربين،له روايتين ،الأولى "مأمون شهيد المثالية"أو "مأمون مشروع مثل أعلى "حسب بعض الترجمات،وهي في جزء منها سيرة ذاتية،صدرت سنة 1928عن دار نشر رادو بباريس،أحداث الرواية تدور في الجزائر العاصمة،بطلها مأمون ،شاب جزائري انتقل إلى العاصمة للدراسة ،لكنه بسبب مخالفته للأوروبيين،تتغير حياته،يشرب الخمر،يأكل لحم الخنزير،يخالط امرأة فرنسية،فتتدهور صحته،ويعود مجبرا بسبب المرض إلى أسرته ليموت بعد أن نطق بالشهادة.أما الرواية الثانية "العلاج أسير البربرسك"أو أسير البرابرة،فقد نشرت على نفقة الكاتب سنة 1929، وهي تتحدث عن الاندماج المستحيل،استلهم الكاتب وقائع هذه الرواية من تاريخ رياس البحر في الجزائر ،في القرن 16، بطلها "برنارد لوديو" مسيحي وقع أسيرا للقرصنة الجزائريين،دخل الاسلام حتى يتخلص من أسرهِ فيتحول إلى العلاج،يتزوج ابنة سيده،ولكنه لا

يستطيع الاندماج في المجتمع الجزائري رغم أن ابنه أصبح مفتيا، ولهذا يرتد قبل موته عن دينه الجديد، يؤكد الكاتب من خلال هذه الرواية أن الاندماج مع الآخر مستحيل.

38- زوزو عبد الحميد، الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 46.

39- عمار بوحوش، أسباب الهجرة إلى فرنسا، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 14، نيسان 1973، ص 63.

المصادر باللغة العربية:

مالك حداد، ليس في رصيف الأزهار من يجيب، ترجمة ذوقان قرقوط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1999.

- ساهبك غزالة، ترجمة صالح قرمادي، الدار التونسية للنشر، 1968.

المصادر باللغة الفرنسية:

- Assia Djebar, les impatients, édition julliard, Paris, 1958.

- Mouloud Feraoun , les chemins qui montent, éditions Talantikit, Béjaia, 2014.

- Mouloud Feraoun, le fils du pauvre, éditions Talantikit, Béjaia, Algérie, 2015.

المراجع:

1- عبد النبي ذاكر، الصورة، الأناء، الآخر، منشورات الزمن، الرباط، المغرب، سلسلة شرفات، العدد 43، 2014، دط.

2- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 3، 1987.

3- محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية الهامة للكتاب، 1996.

4- زوزو عبد الحميد، الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939) المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

المجلات:

عمار بوحوش، أسباب الهجرة إلى فرنسا، مجلة الثقافة، الجزائر، العدد 14، نيسان 1973.

المواقع:

سليم بركة، الأدب الاثنوغرافي في الجزائر المستعمرة، موقع أنتروبوس www.arathropos.com